حين يصبح الإيمان سلوكًا فلسفة الأخلاق " 2 "

قد يعرف الإنسانُ الحقّ، ثمّ يختار خلافه؛ وقد يؤمن بالفضيلة، ثمّ يعجز عن ممارستها؛ وقد يطيل الحديث عن الكمال، فيما تبقى شخصيّته بعيدةً عمّا يعرفه ويؤمن به.

فكيف نفسّر هذه المسافة بين ما يعتقده الإنسان وما يصدر عنه من أفعال؟ وهل يكفي أن نعرف الخير لكي نصبح من أهله؟

تكشف هذه الأسئلة عن قضيةٍ عميقة في فلسفة الأخلاق الإسلامية: إنّ كمال الإنسان لا يتحقّق بمجرّد المعرفة، ولا بمجرد قيامه بأفعالٍ متفرّقة، بل يتشكّل من خلال العلاقة المتبادلة بين اعتقاده وعمله، حتى تصبح الحقيقة التي يؤمن بها قوّةً فاعلةً في شخصيّته، وتغدو الفضيلة جزءًا راسخًا من وجوده.

من حقيقة الاعتقاد إلى حقيقة الإنسان

ليس الاعتقاد فكرةً تسكن الذهن فحسب، بل حقيقةٌ ينبغي أن تنعكس على سلوك الإنسان واختياراته. فلا يُقاس رسوخ الإيمان بقوّة التعبير عنه، بل بقدرته على توجيه المواقف حين تتعارض الفضيلة مع المصلحة، أو يغيب الرقيب. وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «ليس الإيمان بالتحلّي ولا بالتمنّي، ولكن الإيمان ما خلص في القلب وصدّقته الأعمال». ويؤكّد أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بقوله: «قيمةُ كلِّ امرئٍ ما يُحسنُه». فحقيقة الإنسان لا يصنعها ما يعتقده فحسب، بل ما يجسّده من قيم في واقع حياته.

العلم والعمل: علاقة تتجاوز التلازم الظاهري

يعبّر أمير المؤمنين عليّ عليه السلام عن هذه العلاقة بقوله : (العلم مقرونٌ بالعمل، فمن علم عمل، والعلم يهتف بالعمل، فإن أجابه وإلّا ارتحل عنه (نهج البلاغة، الحكمة 366

إنّ دلالة هذه الحكمة أعمق من مجرّد الدعوة إلى تطبيق المعلومات؛ فالعلم الذي لا يجد طريقه إلى الحياة يفقد أثره التربوي، وقد يتحوّل إلى حجّةٍ على صاحبه بدل أن يكون وسيلةً لإصلاحه.

وليس معنى ذلك أنّ كلّ معرفةٍ لا يظهر أثرها فورًا تزول، بل إنّ المعرفة لا تبلغ غايتها الأخلاقية ما لم تُسهم في توجيه الإرادة والسلوك.

وفي هذا السياق، رُوي عن الإمام الصادق عليه السلام: " لا يقبل ا عملًا إلّا بمعرفة، ولا معرفة إلّا بعمل، فمن عرف دلّته المعرفة على العمل، ومن لم يعمل فلا معرفة له، ألا إنّ الإيمان بعضه من بعض "

وهكذا لا تكون المعرفة بديلًا عن العمل، ولا يكون العمل الواعي مستغنيًا عن المعرفة؛ فالعمل بلا بصيرة قد يضلّ طريقه، والمعرفة بلا التزام قد تبقى عاجزةً عن تغيير صاحبها. والكمال ينشأ من اجتماعهما في مسارٍ واحد.

كيف يصنع العملُ الإنسان؟

لا يقتصر أثر الفعل الأخلاقي على نتائجه الخارجية، بل يمتدّ إلى بناء شخصية فاعله؛ فمَن يضبط غضبه يدرّب نفسه على الحِلم، ومَن يلتزم الصدق يرسّخ الاستقامة في ذاته. وهكذا يصبح تكرار العمل الصالح سبيلًا إلى ترسيخ الفضائل، كما قد يجعل تكرار الخطأ الانحراف أكثر سهولة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾، وفي دعاء مكارم الأخلاق يسأل الإمام السجاد عليه السلام ربّه أن يبدّل الانفعالات السلبية بفضائلها: " وَأَبْدِلْنِي مِنْ بِغْضَةِ أَهْلِ الشَّنَآنِ الْمَحَبَّةَ، وَمِنْ حَسَدِ أَهْلِ الْبَغْيِ الْمَوَدَّةَ " فالعمل ليس مجرّد سلوك نؤدّيه، بل ممارسةٌ تُسهم في تشكيل ذواتنا وصناعة ملكاتنا الأخلاقية.

طهارة القلب وأثرها في المعرفة

قد يمتلك الإنسان علمًا واسعًا، لكنّ الكِبر يحول دون قبوله الحقّ، وقد يعرف الصواب، غير أنّ الهوى يدفعه إلى تأويله. وهذا يكشف أنّ الانتفاع بالمعرفة لا يتوقّف على سلامة التفكير وحدها، بل يتأثّر بطهارة النفس ودوافعها. قال تعالى: ﴿بَلِ الْإِنْسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ۝ وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. وفي دعاء مكارم الأخلاق يسأل الإمام السجاد عليه السلام : " وَاجْعَلْنِي مِنْ أَهْلِ السَّدَادِ، وَمِنْ أَدِلَّةِ الرَّشَادِ " فالتواضع يهيّئ لقبول الحقيقة، والإخلاص يصون العمل، ومقاومة الهوى تحرّر الإرادة من أسر الرغبات. وهكذا تتكامل المعرفة مع تهذيب القلب؛ ليغدو العلم وعيًا يوجّه السلوك، واليقين قوةً تبني الاستقامة.

الكمال: أن يتكامل ما نؤمن به وما نصير إليه

ليس الإنسان الكامل مَن جمع المعلومات الأكثر، ولا مَن أدّى أفعالًا صالحةً متفرّقةً فحسب، بل مَن أخذت الحقائق التي يؤمن بها تسهم في صياغة شخصيّته، حتى يقترب قوله من فعله، ونيّته من سلوكه، ومعرفته من حكمته.

وفي دعاء مكارم الأخلاق يعلّمنا الإمام زين العابدين عليه السلام أن نسأل الله تعالى: " وبلّغ بإيماني أكمل الإيمان، واجعل يقيني أفضل اليقين، وانته بنيّتي إلى أحسن النيّات، وبعملي إلى أحسن الأعمال "

إنّ ترتيب هذه المطالب يكشف عن أفقٍ متكامل: إيمانٌ ينمو، ويقينٌ يترسّخ، ونيّةٌ تُصلح الوجهة، وعملٌ يترجم ذلك كلّه في الواقع. فالكمال ليس صفةً منفردة، بل انسجامٌ متدرّج بين باطن الإنسان وظاهره.

كيف نحوّل الاعتقاد إلى عمل؟

خمس خطوات عملية

1. اختر قيمةً لتعيشها: إذا تعلّمت الصدق، فاجعل يومك ميدانًا لممارسته، ولو في موقفٍ صغير.

2. حوّل المعرفة إلى قرار: لا تكتفِ بمعرفة الفضيلة، بل اسأل نفسك: كيف أطبّقها اليوم؟

3. راقب أثر عبادتك: تأمّل بعد الصلاة: هل أصبحت أكثر صبرًا، وأحفظ للسانك، وأبعد عن الإساءة؟

4. واجه أعذارك: لا تختبئ خلف تبريراتك؛ اعترف بخطئك، وبادر إلى إصلاحه.

5. حاسب نفسك يوميًّا: راجع أعمالك قبل النوم، واستغفر عن تقصيرك، وحدّد خطوةً لتحسين سلوكك غدًا.

وقد لخّص أمير المؤمنين عليه السلام هذه الحقيقة بقوله " : الْعِلْمُ مَقْرُونٌ بِالْعَمَلِ،

فَمَنْ عَلِمَ عَمِلَ "

فالنمو الأخلاقي لا يُقاس بكثرة ما نعرف، بل بمقدار ما يتحوّل من معارفنا إلى اختياراتٍ ومواقف وأعمال؛ فهناك تتجلّى حقيقة الاعتقاد، وتتشكّل حقيقة الإنسان.

خاتمة: حين تصبح الحقيقة جزءًا من كياننا

ليس السؤال الأهم كم نعرف من الحقائق، بل ماذا صنعت في نفوسنا؟ هل جعلتنا أكثر عدلًا وأمانةً وتواضعًا، وأقدر على مقاومة الهوى؟ يقول أمير المؤمنين عليه السلام: " قَرَنْتُ الْحِكْمَةَ بِالْعَمَلِ " فالكمال الأخلاقي أن تنتقل الحقيقة من معلومةٍ نقرّ بها إلى مبدأٍ نعيش وفقه، ومن قيمةٍ نعجب بها إلى فضيلةٍ تتشكّل بها شخصيّتنا. عندئذٍ يصبح الاعتقاد قوّةً توجّه حياتنا، ويغدو العمل طريقًا لترسيخ الحقيقة في أعماق ذواتنا.